حياة طه حسين الثانية

د. أحمد بيضون

مضت أعوام ثلاثة عشر على رحيل طه حسين. فهو قد انطفأ في سنته الرابعة والثمانين مكلّلاً بغار غرته من جراء صمت الشيخوخة الطويل مسحة ذبول خفيفة. وكانت التحولات التي شهدتها بعد الحرب العالمية الثانية أنواع أدبية شارك في تجديدها ـ بل أحياناً في تأسيسها ـ «عميد الأدب العربي» قد جعلت بعض الذبول يعرو أيضاً المرحلة الأخيرة من العمر المنتج الذي طال بهذا المجدد. فالناقد الذي كأنه لم يمسه بشيء من الهزة التي أخذ يحدثها في النقد الأدبي تدخل علم النفس التحليلي والسيمائيّات. بل هو كان قد توقف عند الجدل الذي بعثه سارتر حول الالتزام في الأدب وعند الجدل الآخر ـ وهو صيغة متمركسة من سابقه ـ حول مآل النتاج الأدبي أهو الى العامة أم الى الخاصة؟ وفي هاتين المناظرتين إياهما نجد أن سلاح الرجل يبدو مغلولاً إذا نحن اعتبرنا بموقع نجمة السعد في تلك الأيام. أما المبدع الذي كانه طه حسين في جانب آخر من نشاطه فقد شاهد، وهو حي، جيلين من الروائيين يخلفان جيله خلافة تامة وشاهد جيلين من الشعراء يدفعان الى منطقة الظل الصفيق شعراء كان قد أحبهم أو كرههم، الا انه أفلح في تذوق شعرهم على أي حال. وأما مشاركاته في تاريخ الاسلام فأية كانت المتعة التي لا يزال يوفرها لنا حتى اليوم أسلوبها القريب من فن القصص، فإن موازينها بقيت، من البداية، خفيفة في هذا الحقل من حقول البحث والتأليف، ونحن نعلم خصوبته في الشرق الاسلامي وفي الغرب. فوق ذلك كله كان قد خفت الصخب المحيط بحداثة طه حسين وهي متصلة بإعداده الجامعي وكان الحاحه في استشهاد ديكارت ومعه ترجماته لأعلام المسرح اليوناني ولڤولتير، وبقيت كلها مثار انعطاف تبرره شجاعة في الريادة لا تنكر، قد فقدت منذ زمن بعيد بريق التوحد، في هذا العالم العربي الذي تدفقت بين أرجائه ترجمات من كل الألوان وازدحم فيه أهل الاختصاص يتخرجون من الجامعات الغربية ثم يعكفون على إعداد آخرين من اضرابهم في جامعات بلادهم.

رغم هذا كله كان طه حسين لا يزال عشية غيابه محفوفاً بعلامات التكريم كلها، تحدق به مستمدة وهجها من زعازع عمر مديد. فهو طيلة ربع قرن أو يزيد «عميد الأدب العربي»، بعد أن كان عميد كلية الآداب في جامعة القاهرة، وكان في الأمر إشارة، من بعيد، الى خلو مقام الإمارة على الشعراء، منذ غياب شعري في مطلع الثلاثينات. وهو في سنة 1963 يخلف صديقه وحاميه القديم أحمد لطفي السيد على رأس مجمع اللغة العربية في القاهرة. ثم انه، في الأونة نفسها، يستوي، على

يدي عبد الرحمن بدوي[1] موضوعاً لأبحاث يضمها مجلد كبير، تهدى اليه، في عيد ميلاده السبعين، وعلى بعضها تواقيع تلامذة وأصدقاء له هم آنذاك نجوم النقد وتاريخ الأدب في مصر وعلى بعضها الأخر بضعة من أكبر التواقيع في عالم الاستشراق المعاصر: ماسينيون وغارديه وبلّلا وبيرك وفون غرونباوم، الخ. ثم كان أن حذا المستشرقون الايطاليون حذو هؤلاء جميعاً فحظي الرجل بمجلد آخر لعيد ميلاده الخامس والسبعين[2]. غير ان هذا كله بدا في حينه تحية تؤدى لدور عبر أكثر مما بدا شهادة لفعل مستمر. كانت حياة طه حسين قد أخذت تبدو واقفة وراءه بمعاني العبارة جميعاً.

عليه يستغرب ان يعود هذا الرجل فيبدي من الحيوية ما يبديه منذ أن مات. فلقد تمت الطبعة الثامنة لآثاره، في تسعة عشر مجلداً، وكانت قد بدأت في بيروت عام وفاته. وواصل ناشرون آخرون جمع مقالاته في كتاب وكانت مجموعات المقالات قد لبثت، طيلة أعوام ثلاثة عشر، صيغة وحيدة لحضور مؤلفنا في عالم النشر، اذ ان آخر تأليف موحّد له، يرقى نشره الى سنة 1960. فكان إذن أن ظهرت ثلاث مجموعات من المقالات له بين عامي 1975 و1980. ونشرت له أيضاً رواية قديمة غير تامة[3]. من جهة أخرى شاهد العالم العربي كله مسلسلاً متلفزاً مؤسساً على كتاب «الأيام» أخرجه يحيى العلمي. وأخرج عاطف سالم فيلماً سينمائياً عن حياته سمّاه قاهر الظلام. وأهم من ذلك كله، في ما يعنينا هنا، هذا الطوفان من الكتب الجديدة عن طه حسين. فإن السْكُوت وجونز[4] يحصيان، في كتابهما البيليوغرافي عن الرجل خمسة وعشرين كتاباً كرّست بتمامها له بين عامي 1973 و1980. وعلينا نحن أن نشير الى ان المؤلفين فاتهما كتابان صادران تباعاً سنة 1976 و1979 وان كتباً أخرى، أربعة على الأقل، صدرت بين 1981 و1986 وان كتابين على الأقل أيضاً، كانا قد ظهرا في حياة الرجل، فأعيد طبعهما بعد وفاته. ولنضرب صفحاً عن الرسائل الجامعية غير المنشورة اذ يصعب احصاؤها. ولنضرب صفحاً عن الفصول التي خصّ بها الرجل في عشرات الكتب. ولنضرب صفحاً عن المقالات المكرسة له ويحصي منها السْكُوت وجونز أكثر من خمسماية في السنوات السبع التي تلت وفاته يقابلها نحو ألف ومايتين في ستين سنة أو تزيد من حياته. أما السنوات الست الأخيرة فلم يحصر أحد بعد ما ظهر خلالها. واللوائح، على أي حال، ناقصة كلها بلا ريب.

ولنشر ها هنا الى ان الكتب التي كرست لطه حسين في حياته وهي نحو من عشرين، ظهر نصفها تقريباً في السنوات الثلاث أو الأربع التي تلت صدور كتابه في الشعر الجاهلي وهي ردود على الكتاب المذكور سنعود اليها. ولنشر أيضاً الى السنوات العشر الأخيرة من عمر عميدنا تكاد تكون ممحلة لا من تآليفه الجديدة وحدها بل من التآليف الموضوعة عنه أيضاً، اذ لم يصدر خلالها عنه الا كتابان أحدهما استعادة لمحاضر محاكمته الشهيرة في العشرينات أيضاً والآخر تكريمي أخرجته أفلام مصرية عدة على غرار كتابي بدوي والايطاليين.

---

(1) بدوي، عبدالرحمن (إعداد): إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين، دار المعارف بمصر، القاهرة 1962، 484 ص. باللغة العربية + 84 ص. باللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية.

(2) T.H. (Ommagio degli Arabioti Italiani), Napoli, 1964

(3) يجد القارىء ببليوغرافيا تبدو تامة لأعمال طه حسين في السْكُوت، حمدي، وجونز، مارسدن: طه حسين الكتاب الأول من السلسلة البيوجرافية النقدية البيليوجرافية «اعلام الأدب المعاصر في مصر»، مركز الدراسات العربية بالجامعة الأميركية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، ط 2، 1982. وتوجد أيضاً ببليوجرافيا جيدة لأعمال الكاتب الصادرة حتى سنة 1960 في: بدوي، م م، ص 19 - 26 من القسم العربي. وهي تستكمل من البيليوغرافيا المثبتة في: عصفور، جابر: المرايا المتجاورة ـ دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1983، ص 497 - 500.

(4) السْكُوت وجونز، م م، ص 283 - 548. ولائحة الكتب المكرسة بتمامها لطه حسين تستخلص أيضاً من عصفور، م م، ص 502 - 3.
TAHAR, Meftah: T.H. *Sa Critique Litteraire et ses sources Française, 2ème éd. Maison arabe du livre, Beyrouth 1982.* PP. 163-165.
وستذكر ها هنا مؤلفات غير مذكورة في هذه المصادر.

أما الكتب الكثيرة الصادرة حوله، بعد غيابه، فهي، بطبيعة الحال متباينة الهموم والقيمة. بعضها خرج من أقلام صحافيين كانوا مقربين الى الرجل وهذا البعض يمت الى السيرة الأدبية. واحدها أهدته سوزان طه حسين الى ذكرى زوجها وجاء حكاية منقحة لعشرة طويلة. غير اننا نقع في هذا الركام على دراسات ذات طموح منها تلك التي أخرجها عبد العزيز شرف وهي تنتمي الى علم اجتماع الأدب وتلك التي وضعها في أكثر من خمسماية صفحة جابر عصفور ومدارها أعمال طه حسين النقدية، ومنها أيضاً أطروحة أعيد طبعها (وترقى طبعتها الأولى، على الأرجح الى نهاية الستينات[5] وكتاب آخر مدارهما المصادر الفرنسية لفكر طه حسين. أما كتاب أنور الجندي[6] والكتاب الذي أثبت فيه محمود مهدي الإستانبولي[7] نصوصاً لنقّاد طه حسين تامة أو مجتزأة وجاء في نحو ستماية وسبعين صفحة، فهما بعيدان كل البعد عن الاكتراث لتكريم ذكرى الراحل، مكرسان لتدمير هذه الذكرى باسم الاسلام، تدميراً مطلقاً.

هذه النقطة الأخيرة رئيسة. فهذا الدفق غير المعتاد من الكتب المنصبة على مؤلف واحد يفيض من كل جانب عن مجرى التكريم البريء وعن مجرى البحث الاكاديمي الرامي الى وصف أعمال الراحل وقياس منجزاته بهدوء بال. ولا يملك المرء الا الوقوف عند هذا التصميم من جانب الأعداء ومن جانب الأصدقاء على احياء جدل كان يخيل لقارىء الستينات مثلاً ان الدهر قد بدأ يأكل عليه. هكذا ترد الروح الى مناظرة هي، في مجالنا الثقافي، مناظرة هذا القرن بامتياز.

فمن جهة أولى لا يألو الصحافيون ولا الجامعيون من أنصار هذا المعلم الاستثنائي جهداً في اعطاء روايته أو تحليلهم طابع التحدي. فهم واعون جيداً انهم يواصلون كفاح المعلم. فاذ ما عرض عبد العزيز شرف مثلاً كنوز معرفته المحققة بأعمال طه حسين وبعصره، مستثمراً اياها في تكريس هذا الأخير مكفّناً للمجتمع التقليدي، فهو يريد أن يقف بدوره بين الحائلين دون قيامة المجتمع المذكور. واذا ما انبرى الاستانبولي، من الزاوية المقابلة ليثبت ان موت طه حسين حدث نهائي، فوضع جنباً الى جنب نصوصاً طازجة وأخرى ترقى الى عام 1926 أو الى عام 1945 ، فإنه ـ وهو المتعلق بالثوابت أكثر من تعلق أنصار الراحل بها ـ يحاول أن يبرز اتصال المعركة وان يرد كيد شرف وأمثاله من الذين يحسبون انهم على قاب قوسين من النصر وانه لم يبق عليهم الا وضع كشف بالحساب ثم نصب تمثال الراحل المنتصر الذي شيعوه لتوهم. ذاك ما تشي به مقدمة الاستانبولي لكتابه. على انه مضطر الى الاقرار بأن الخصم يرفض القاء السلاح. وهو لا يهمل لوم الذائدين عن الاسلام على فتورهم في رد الحملة اللعينة التي بات طه حسين ذريعتها بعد أن كان بطلها. ولكن ثقته بمحالفته الحقيقة تجعله واثقاً، هو أيضاً، بأنه ربح المعركة. إذ لما كان الاسلام صنو الحق فهو قادر، من حيث المبدأ على دفع خصومه وإن تلكأ أنصاره في مواجهتهم. يكفي القاء النظر الى الوراء، أي الى كل أولئك الذين لم يجدوا أية مشقة في دحض حجج المعلم، حتى نعلم ان تلاميذه خاسرون لا محالة. وذاك ان التآمر ـ وهو رخص بطبيعته ـ يفسر استطاعة طه حسين أمس أن يروغ من الحقائق التي جبه بها. والتآمر نفسه هو الذي يجهد اليوم لوضع النصر في جانب تلاميذه. الخلاصة اذن ان الطرفين كسبا المعركة. وهي مع ذلك لا تزال مستعرة الأوار. فيا لها من معركة تتواصل جولاتها وهي قد انتهت منذ زمن بعيد!

لا بد من الرجوع الى الوراء كثيراً حتى نقع على اهتمام من هذا القبيل بطه حسين وعلى اهواء لها هذا العنف محدقة بشخصه وبأعماله. فأثناء الأعوام الأربعين التي سبقت غياب الكاتب، أتاحت له أعماله، وهي تزداد عديداً وتنوعاً كسب مهابة لا جدال فيها، الا انها لم تعد مثاراً لعواصف النقد العاتية. لا يصح بالطبع إهمال الجدل الذي كان ظهور «مستقبل

(5) هي أطروحة مفتاح طاهر، م م.

(6) الجندي، أنور: طه حسين، حياته وفكره في ميزان الاسلام، دار الاعتصام، القاهرة 1976.

(7) الاستانبولي، محمود مهدي (اعداد): طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الاسلامي، بيروت، 1983.

الثقافة في مصر» سنة 1938 سبباً فيه. ولكنه بقي، من حيث حدة اللهجة وتنوع المضامين، أخفت بكثير من المناظرة التي أطلقتها دراسته **«في الشعر الجاهلي»** عام 1926 . كان قد أمسى صعباً، منذ 1930 ، على مؤرخي الأدب العربي القديم وعلى نقاد الأدب المصري المعاصر، أن يتجاهلوا ما جاء به طه حسين. غير ان انتظام حضوره، مذ ذاك. وإن دل على عمق الصدى الذي خلفه كتابه، كان ينحو نحو تدجين هذا الشبح المقلق شيئاً فشيئاً. وإذا نحن وضعنا جانباً هذه الفصول التعليمية المكرسة لصاحبنا وهذه الشواهد الالزامية المستقاة من كتبه، اتضح ان معظم الدراسات التي اتخذته موضوعاً، في غضون تلك المدة الطويلة، كانت من وضع أجانب.

أما الجدل الراهن فهو يأتي في مساق تاريخي مختلف جداً عن مساق العشرينات برغم ادعائه العودة الى مدارات بحث جاوز عمرها نصف قرن. وإذا كان الأنصار والخصوم يحتوون بنظرهم اليوم كل تجربة الراحل في الأدب والتعليم والسياسة ويطمحون بالتالي الى تأليف صورته بألوان متقابلة يريدها كل فريق منهم نهائية، فإن كشف الحساب يبقى في كل الحالات، مديناً لموضوعات الحوار القديم بل أسيراً لها، وبخاصة للمرحلة الأولى منه، وهي الأهم بأسماء اعلامها وباتساع حقلها. علينا اذن أن نعود الى عاصفة العام 1926 فننظر في أحداثها علّنا نميط اللثام عن سر حيويتها المتجددة، وهي التي سماها جاك بيرك **«قضية دريفوس في فقه اللغة العربية»**[8].

لا مثيل لهذه القضية، فعلاً، في مفكرة آدابنا، فهي أعظم خطراً من الأزمة التي انعقدت قبلها بسنة حول كتاب علي عبدالرازق **«الاسلام وأصول الحكم»**[9]. وذلك انها أكثر شمولاً ولأن الأوتار التي مستها هي، برغم الظواهر أكثر تنوعاً. جاء كتاب عبدالرازق ورقة في جدل راهن حول احتمال اعادة الخلافة في مصر بعد أن أعلن أتاتورك الغاءها. وقد وضع الكتاب الخلافة ـ ومعها كل صورة محددة للسلطة الزمنية ـ في هامش العقيدة الإسلامية. ولما كان فؤاد الأول لا يخفي شهوته للقب الجليل، فقد انتهت الأزمة الى كسر التحالف الحكومي. فإن عبد الرازق كان يتحرك في دائرة الأحرار الدستوريين الذين كان أخوه واحداً من قادتهم البارزين. ولكن اذا تجاوزنا هذه النتيجة، فإن الشرخ الذي أبرزه هذا الشيخ الأزهري في قلب النظام الاسلامي، لم يكن يتعدى الصعيد المؤسسي. وهو ان وصل الى دوائر أخرى، كان وصوله بفعل عدوى غير مباشرة. أما كتاب طه حسين **«في الشعر الجاهلي»** فجاء محاولة لعزل المعطى الاسلامي في قلب الثقافة التقليدية بأسرها، تدخل الشك الى عناصر مشتركة بين الدائرتين فلا تخلو ان أفلحت من اخلال بذاك المعطى نفسه. أما النتيجة العامة فهي تمزقاً لا يضر المسلمين ويستعاد في نفس كل مسلم. لذا لا يستغرب عنف الصدمة ولا عنف الرد.

ويستحسن أولاً أن نعطي العوامل السياسية والمؤسسية حقها، بالضبط، في هذه الأزمة. عام 1926، لم يكن طه حسين معدوداً بعد بين أعلام الأدب الكبار، في مصر، ولكنه لم يكن من المجهولين. فهو «ابن الجامعة المصرية البكر»، وخصومه لم ينسوا تذكيره بذلك. وذاك أنه الدكتور الأول الذي خرج منها سنة 1914 ثم أخذ يدرّس التاريخ اليوناني ـ الروماني القديم فيها، منذ سنة 1919، بعد مناقشته، أثناء العام السابق، رسالة ثانية، في باريس، كان موضوعها **«فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»** وقد بدأ إعدادها تحت اشراف اميل دركهايم. وفي سنة 1925، أصبحت الجامعة في يد الدولة بعد أن كانت مؤسسة خاصة منذ تأسيسها، سنة 1908. فعهد الى طه حسين بكرسي الأدب العربي فيها. ولم يكن كتابه **«في الشعر الجاهلي»** غير خلاصة الدروس التي ألقاها، أثناء تلك السنة، في السنتين الجامعيتين الأولى والثانية. كان الرجل مشاجراً، عدواً للتقليد

(8) BERQUE, J.: «Une affaire Dreyfus de la Philalogic arabe», in: BERQUE, J., CHARNAY, J. -P., etc... *Normes et valeurs dans l'islam contemprain, Payot*, Paris, 1966, pp. 266-285.

(9) راجع في شأن هذه الأزمة: رمضان، عبد العظيم: **تطور الحركة الوطنية في مصر من** *1918* **الى** *1936*، دار الكاتب العربي، القاهرة 1968، ص 583 - 590.

بطبعه وكان مساجلاً مرهوب الجانب. ولم يكن غبار كتابه الجديد أول غبار يثيره. فسجلّه، خلال دراسته في الأزهر، لم يخل من مشاحنات مع أساتذته بل مع شيخ الجامع الأكبر نفسه. ومقالاته اللاحقة في «الجريدة»، صحيفة أحمد لطفي السيد، كثيراً ما تناولت بالتجريح عالم الأزهريين. وهو قد عاد الى مجابهتهم، سنة 1925، محامياً من علي عبدالرازق بعبارات أقل ما يقال فيها انها قارصة. وكادت رسالته الأولى «ذكرى أبي العلاء»، سنة 1915 أن تكون أول عهده بالفضائح الكبيرة. فإن نائب بور سعيد طرح، في شأنها، سؤالاً على الحكومة كان أول اتهام لصاحبها بالإلحاد. ولم يسحب النائب سؤاله إلا بعد طلب من سعد زغلول، وهو يومها رئيس المجلس النيابي[10]. ثم إن طه حسين كان، قبل تناوله الشعر الجاهلي، قد أبرز، في «السياسة»، جريدة محمد حسين هيكل التي كان محررها الأدبي، موجة الشك الديني وتحلل الأخلاق التي طبعت أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي. ولم تبق من غير صدى مقالاته تلك التي شكت في نسبة بعض الشعر العذري الى العذريين وفي تاريخيّة قيس بن الملّوح، مجنون ليلى الشهير[11]. عليه كان طه حسين، بلا ريب، سنة 1926، رجلاً مطلوباً رأسه.

وهو، إذ ذاك، رجل محفوف بالأخطار وممتع بالحماية، في آن. هو معرّض لأنه ابن تلك الجامعة، المفتقرة جذورها الى العمق، والتي أثار تبنيها من جانب الدولة حفيظة الأزهريين والأوساط السياسية المحافظة. تكفي شهادة على ذلك محاضر الجلسات التي كرسها البرلمان لقضية طه حسين، وقد وصلت الينا من طريق مصطفى صادق الرافعي[12]. ففيها غيظ عظيم يصبه خصوم طه حسين على الجامعة. وجدالهم كله محكوم بلازمة: تنفقون الأموال العامة في سبيل هذه المؤسسة المشبوهة، فانظروا اذن الى ثمرتها! ولا يفوت الأمرطه حسين نفسه، اذ نراه يضيف إلى الطبعة الثانية من كتابه فصلاً تاماً مكرساً لتعليم الأدب في مصر[13] ينتقد فيه الأزهر ولا يعف عن دار العلوم، برغم أنها غير دينية. ودار العلوم هذه قريبة الى أن تكون داراً للمعلمين، باصطلاح أيامنا، أنشأها قبل عقود علي باشا مبارك وأخذت، بعد انشاء الجامعة، تجد نفسها بين نارين. فقد خصها الأزهر بطلائع حملته على التعليم الحديث، وها هي الجامعة تجد «عصريتها» غير كافية أو تجدها «عصرية» تجاوزها العصر.

لكن طه حسين، من جهة أخرى، رجل محسوب، بمعنى ما، على السلطة. أليس هو المحرر الأدبي في جريدة الأحرار الدستوريين، وهم الحزب الرئيس في التحالف الحاكم؟ ثم أليس رئيس الحكومة هو عدلي يكن، ذاك الذي وجد الأعمى الشاب نفسه، في آخر فصل من «الأيام»، يهتف بجياشة قبل أن تنهال عليه حجارة المتظاهرين[14]. ثم إن الجامعة المستهدفة تقف، بدورها، صفاً واحداً، من وراء «ابنها البكر». فرئيسها هو أحمد لطفي السيد أي الرجل الذي حضّ طه حسين على كتابة مقالته الأولى. لذا وجد خصوم طه حسين أنفسهم مضطرين الى رفع صوتهم في البرلمان نفسه ليتيسر لهم صرف الأستاذ الشاب، عبر الغاء الاعتماد المخصص لراتبه! أما عدلي يكن فيعارض الاجراء ويصل الى حد التهديد بطرح الثقة. فيتراجع النائب الوفدي الذي طلب المناقشة. يومها كان طه حسين في اجازة خارج مصر. وقد سحب كتابه من السوق بعد أن اشترت الجامعة جميع النسخ. وهو ما ان عاد حتى أحيل الى قاضي التحقيق بفعل شكوى قدمها النائب الوفدي نفسه

---

(10) راجع في شأن هذه المرحلة من حياة طه حسين ترجمته التي أثبتها بدوي مثلاً في: الى طه حسين. . . ، م م، ص 9 - 17، أو كريم، سامح: **ماذا يبقى من طه حسين؟**، دار القلم، بيروت، لا. ت.، ص 24 - 56.

(11) اعيد نشر هذه المقالات في: حسين، طه: **حديث الأربعاء**، ج 1 (ط 1، القاهرة 1925)، ص 173 - 315 من ط 12، دار المعارف، القاهرة 1976.

(12) الرافعي، م. ص: **تحت راية القرآن**، ط 7، دار الكتاب العربي، بيروت 1974، ص 382 - 409.

(13) حسين طه: **في الأدب الجاهلي**، ط 12، دار المعارف، القاهرة 1977، ص 7 - 22.

(14) حسين، طه: **الأيام**، المجلد الأول من **المجموعة الكاملة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1973، ص 683-684.

عبدالحميد البنان. والحال ان الوفد لم يواجه هذه القضية متحداً. فالعقاد، أبرز مثقفي الحزب، يقف في صف حرية الفكر. أما العلماء فيصل بهم الأمر الى زيارة القصر الملكي ورئيس الحكومة (زِيْوَرْ، سلف عدلي) والى اطلاق التظاهرات في الشوارع، ومطلبهم واحد هو انزال العقاب بمستحقه. وأما سعد زغلول فجهد لتهدئة الخواطر: «ان هذا الدين متين و(. . .) ان هذا الرجل ليس زعيماً ولا إماماً حتى نخشى من شكه على العامة. فليشك ما شاء. ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟!»[15].

علينا الإشارة بعد ذلك الى ان قاضي التحقيق وقف للأستاذ وقفة الند للند. فان مطالعته التي نشرت (وأعيد نشرها في بيروت سنة 1972)[16] هي آية فصاحة وعلم، نادر المثال، على الأرجح، في سجلات العدالة المصرية. في الجانب الحواري من المطالعة يتوصل القاضي الى نقض البرهان اللغوي الذي جاء به طه حسين، فيحرجه ويضطره الى الغمغمة في أجوبته. وهو يقع هنا وهناك، في الكتاب المتهم على شواهد محرفة وعلى أقوال ينقض بعضها بعضاً وعلى أحكام تصاغ مرة بصيغة الظن ولا تلبث أن تعطى صفة اليقين. في النهاية حفظت القضية قضائياً وهي كانت قد حفظت سياسياً قبل ذلك. على أن المؤلف لم يستسلم، بل أعاد طبع كتابه في العام التالي مضيفاً إليه فصولاً منهجية وتعليمية، ومعدلاً عنوانه تعديلاً طفيفاً ليروغ من احتمال تحرك القضاء ثانية. والطبعة الجديدة خالية من أكثر مقاطع الكتاب مسّاً بالشعور الديني، وهي التي كانت تناولت مباشرة بعض نصوص القرآن.

لم تتوقف المعركة، مع هذا، في الصحف وفي الكتب، بل ازدادت تأججاً. ومعنى هذا ان الاعتبارات المؤسسية وصراعات الأجنحة السياسية والاعتبارات المتصلة مباشرة بالعقيدة الاسلامية لم تكن تستنفد مضمونها.

ففي غضون ثلاثة أعوام، نشر في الرد على طه حسين سبعة كتب. وبات صعباً اليوم احصاء المقالات احصاء تاماً، وقد أحصى منها جونز والسكوت وشرف والجندي وآخرون ما أمكنهم احصاؤه، وهو كثير. ولنشر أولاً الى ان ردود الأمس، على العكس من نصوص اليوم المماثلة بأكثريتها للكاتب الراحل، كانت، على وجه التعميم، تقطر سماً. وبين كتّابها نفر من الاعلام الكبار، آنذاك، في الصحافة والأدب. نذكر منهم شكيب أرسلان «شيخ الأدب العربي» و«أديب الشرق الأكبر»، في مصطلح تلك الأيام، وهما لقبان حمل طه حسين ما يعادلهما لاحقاً، ومعه رشيد رضا، صاحب «المنار» ونصير الشرعية العثمانية، ابان الحرب الأولى، الى جانب ارسلان، ومعهما مصطفى صادق الرافعي، الكاتب الاسلامي والشاعر المرموق ومؤرخ الأدب. وثلاثتهم من أصول سورية ـ لبنانية، إلا أن الأخيرين مقيمان في مصر، بينما يكتب ارسلان من لوزان. أما أبرز المصريين من منتقدي طه حسين فهم محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر، لاحقاً، ومحمد فريد وجدي صاحب أول موسوعة عربية تامة، في عشر مجلدات، ورئيس تحرير مجلة الأزهر، بعد ذلك، وابراهيم عبد القادر المازني وهو شاعر وكاتب انتقادي، الخ. . . وكان يسع طه حسين، الذي لم يلق في الصحافة نصرة كافية، أن يعتمد، في المقابل، على المؤزارة المعنوية من وجهين كبيرين بين وجوه الثقافة المصرية، في ذلك العهد: لطفي السيد، رئيس جامعته، ومحمد حسين هيكل صاحب «السياسة» التي كان الأديب الملاحق ينشر فيها مقالة كل أربعاء.

وقد أسلفنا ان الردود على طه حسين كانت تنضح بحقد لا يوصف. ويشير جاك بيرك الى مواضع الاسفاف في المقالات التي دبجها لهذه الغاية مصطفى صادق الرافعي مثلاً[17]. فهذا الأخير لايحجم عن الاشارة من طرف يكاد لا يكون

(15) كريم، سامح: ماذا يبقى من طه حسين؟ م م، ص 67.

(16) شلبي، خيري (اعداد): محاكمة طه حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 31 - 70. وكان اسم القاضي محمد نور.

(17) بيرك، جاك: م م، ص 273 - 274.

خفياً الى عمى طه حسين ليفسر، ما يراه فقراً في مخيلة الرجل وضعفاً في احساسه. ولما كان الرافعي نفسه قد مني، وهو في الثلاثين، بالصمم المطبق، فقد كان يصعب عليه، رغم ميله الى الشتم، أن يذهب فيه الى أبعد مما ذهب[18]. لكنه، على أي حال، لا ينسى أن يأخذ على خصمه دراسته في فرنسا وزواجه من فرنسية.

ومع أن خصوم طه حسين لم يكونوا جميعاً من هذه الطينة، فإن أيّاً منهم لا يكاد يقدر على اكمال فقرة دون الاحتفال في آخرها بانتصاره على الرجل، وبوجاهة براهينه على جهل الرجل وضعف منطقه وجنوحه الى الغش. لذا جاء انشاء هؤلاء الكتاب ثقيلاً رازحاً تحت اليقين الذي يعمر أحكامهم. فهم يؤلبون البلاغة المصطنعة والجزم في الأحكام ليسحقوا النظرية وصاحبها معاً. وهم كثيراً ما ينكرون عليه، عن طريق تحريف أحكامه ومحاكمة النوايا التي يضيفونها اليه، مجرد الحق في أن يكون، أحياناً، على حق. في مواجهة هذا الشكّاك يضعون يقينهم وفي مواجهة هذا المجذوم يضعون طهارة نسبهم الروحي. وهذه الأبهة الثقيلة تسيء كثيراً، عند الحساب، الى رصيد قضيتهم الذي هو، في الأصل، كبير. الى ذلك تكرر هذه الردود بعضها بعضاً دون حساب. ويظهر ان مقالات الصحف كانت قد ذهبت بكل مادة المناظرة أو بجلها. فجاء البعض من أهم الكتب المشتركة فيها جمعاً أو دمجاً لمقالات سبق نشرها. واذا كان لا بد من فصل الحب عن الزؤان والعنف المؤسف عن جهد الاستدلال الحقيقي، فيجب الاقرار بشيء من الامتياز على سائر الردود لذاك الذي يحوي أكبر قسط من الجهد المذكور. وهو، بلا مراء، رد محمد لطفي جمعة[19].

يصمد هذا الكاتب دون صعوبة للمقارنة بطه حسين نفسه من حيث تنوع مصادره، وعلى الأعم، من حيث التعدد في وجوه إعداده. فهو محام وصحافي ما لبث أن ضمه مجمع اللغة القاهري وهو، الى ذلك، مترجم يتقن حفنة من اللغات فتجتمع فيه المعرفة التامة بالمصادر العربية المتعلقة بالشعر الجاهلي والالمام الواسع بمختلف اتجاهات النقد الأدبي في فرنسا وانكلترا وبأعمال المستشرقين المهتمين بتاريخ العرب ولغتهم وأدبهم. ثم انه تلميذ مباشر لمحمد عبده، معنيّ بتنشيط حركة الاصلاح التي أطلقها معلمه والتي كان طه حسين أيضاً لا يخفي انتسابه اليها. وهو لا يفوت مناسبة ليظهر تعلقه بالمشروع الآيل الى تحديث مصر وليعلن احترامه لأعلام الاستشراق الكبار. فلا امكان هنا للوقوع على التهمة التقليدية التي ألفنا توجيهها الى طه حسين وهي انه حصان طروادة للثقافة الغربية، بل أيضاً لسياسة الغرب. حتى ان جمعة يميل شطر اتهام خصمه بخيانة مصادره الغربية وبشيء من الجهل بها.

غير انه مع ابتعاده هذا عن «فريسية» الرافعي (والكلمة لبيرك) لا يقل عن هذا الأخير استماتة في تهديم النظرية التي أطلقها طه حسين. هذه المفارقة تستحق ان نتوقف عندها. ولكن علينا أن نوجز أولاً ما جاء به الكتاب المتهم.

يدرج طه حسين لباب رأيه في العبارات التالية: (. . .) الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وانما هي منحولة بعد ظهور الاسلام، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم واهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. ولا أكاد أشك في ان ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً (. . .) ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي»[20]. أين إذن ينبغي البحث عن تلك الصورة؟ في القرآن، يجيب طه حسين، لأن القرآن هو، بين ما في أيدينا من نصوص كبرى بالعربية، أول نص يسعنا الوثوق بصحته وثوقاً مطلقاً. وهو يعلن تسلحه بالشك الديكارتي في تحقيقه لأوضاع شعر الجاهليين. ومآل هذا الشك، في الموضوع المذكور، أن نضع جانباً، ونحن ندرس

(18) في شأن الرافعي، يراه مثلاً: ضيف، شوقي: **الأدب العربي المعاصر في مصر**، دار المعارف، القاهرة، 1974 (ط 5)، ص 242 - 251.

(19) جمعة، م. ل.: **الشهاب الراصد**، مطبعة المقتطف والمقطّم، القاهرة 1926.

(20) حسين، طه: **في الأدب الجاهلي**، م م، ص 65.

الآداب العربية، مشاعرنا القومية والدينية. وذاك ان اهواء من هـذا القبيل هي مـا أفسد علوم القـدماء. أمـا ضمان الحقيقـة الوحيد فهو العقل حين يكون ممتّعاً بحريته التامة.

ويسند طه حسين رأيه الذي ذكرنا الى برهان وحيد، في الواقع، وهو البرهان اللغوي. هذا أمر لم يلاحظه نقّاد الكتاب ملاحظة كافية: اذا نحن استثنينا تلك الحجة التي نقع عليها في «الكتاب» ـ أي القسم ـ الثاني من الطبعة النهائية، لم نعد نقع على براهين خليقة بهذا الاسم. «فالكتاب» الثالث يعدد الأسباب التي يفترض انها حملت المسلمين على نسبة شعر من وضعهم الى شعراء الجاهلية. هي اذن، على الاجمال، أسباب افتراضية، تستنتج استنتاجاً من أحوال التـاريخ الفعـلي ووقائعـه أو، في حالات نادرة، من وقائع النحل الثابتة تاريخياً. والأسباب المشار اليها خمسة: أ ـ الصراع بين العصبيـات السياسيـة ـ القبلية. ومن شأنه أن يـدفع كـل حزب الى تـزويد نفسـه بإرث شعـري يزعم لـه التقدم عن الإسـلام ويريـد منه أن يحس ـ بفضـل الأجداد ـ صورته هو وأن يحط من قـدر الحزب الـذي يناوئـه. ب ـ عصبية المسلمـين الدينيـة التي حملت بعضهم أحيانـاً على وضع البشرى ببعثة الرسول في صيغـة شواهـد مختلفة، شعـرية أو غـير شعريـة، سبقت البعثة بـزمن طويـل أو قصير. وهي حملتهم أيضاً على السعي الى اثبات العروبة الخالصة للغة القرآن ولو كلفهم ذلـك اختراع الـطرف الثاني من طـرفي المقارنـة. وهي حملتهم أخيراً الى وصل الاسلام، على أرض نشأته، بصيغة عربية للوحي الابراهيمي. وقد انضم اليهود والنصـارى الى جوقة المخترعين هذه رغبة في تحسـين مواقعهم من الـدولة الاسـلامية. ج ـ مخيلة القصـاص الفالتـة من عقالهـا وهم بدورهم معرضون لأنواع مختلفة من التأثير ولاغراء الامتاع وإثارة الانفعالات بشتى الأسـاليب. فكانـوا ينظمـون أشعاراً أو يكلون الى آخرين نظمها، وينسبونها الى القدماء ليزينوا بها قصصهم المتعلقة بسيرة النبي وبأيام العرب، الخ... وهم كثيراً مـا ينسبون هذه القصائد أو المقطوعات الى مجهولين. فإذا بنسبة القسط الكبير من تلك الأشعار تقتصر على عبارة «قال الشـاعر» أو عبـارة «قال أعرابي»، الخ... د ـ الشعوبية، أي النزاع المتمادي بين القوميات، وهو قد وضع، منذ عهد مبكر، العرب الغالبين في مواجهة مع الموالي من الفرس وغيرهم. هؤلاء احتفظوا، في ما وراء ولاء متفاوت الصدق للاسلام، بالاخلاص لتراث قومهم وبذكرى أمجادهم الغابرة. لذا كانوا مسوقين، بعد أن تعلموا لغة القرآن، الى وضع اشعار عـلى ألسنة العـرب القدمـاء ملؤها الإشارات الى عظمة الملك الفارسي وحضارته قبل الفتح الاسـلامي. وكان العـرب، من جهتهم، مسوقـين الى وضع اشعـار أخرى غايتها التمدح، في وجه مفاخريهم من الفرس، بعلم أجدادهم وبفضائل أخرى ينسبونها الى العرق العربي. هـ ـ خفة الرواة، أخيراً، وهم أناس لا يعوّل كثيراً على صـدقهم، وقد اشتهـروا بالمجـون وقامت أدلـة كثيرة عـلى ميلهم الى الوضـع. والحال اننا مدينون لذاكرتهم الخارقة بما بلغنا من هذا الشعر الجاهلي الذي كانوا يجمعونـه من مصادر مختلفـة. أما الـذي كان يدفعهم الى الكذب فهو الطمع والرغبة في الحظوة عند الأمراء والأعيان أو في التغلب على المنافسين، الخ...

لا يخفي طه حسين دينه لـ «مجادلة هوميروس» الشهيرة. فيفتتح التعداد الآنف الذكر بـدعوة قـد تكون الأولى في النقـد العربي، الى ادخال المقارنة ادخالاً حقيقياً في هذا الأخير، وذلك باسم الديكارتيـة أيضاً. فـالمهمة لم تعـد، في نظره، التمـدح بمزايا هذا الشعر الذي يزعم له التفوق على كل شعر عداه، بل باتت ازالة هالة القدسية عن الأدب العربي بمعـاملته المعـاملة التي اخضع لها النقد الاوروبي الحديث آداباً اخرى اخصها الأديان القديمان اليوناني والروماني فان نحل الشعر ليس وقفاً عـلى العرب، وقد سبقهم اليه غيرهم. ويؤكد طه حسين في رسالة الى مفتاح طاهر[21]، انه كان قـد أعجب بكتاب «تـاريخ الأدب الاغريقي» للأخوين كروازيه وانه حضر دروس الفريد كروازيه في جامعة السوربون. ويذكر طـاهر، من جهـة أخرى، بـأن صاحب «في الأدب الجاهلي» أتيحت له فرصة الاستماع في بروكسل، سنة 1923، الى جورج لوفيفـر وهو يـدحض رأي أوجين

(21) في طاهر، مفتاح، م م، ص 150 - 151. في هذه الرسالة يؤكد طه حسـين أيضاً انه لم يطلع إلا بعد صدور كتابه على دراسـة نشرها الانكليـزي د. س. مرغليوث سنة 1925. وهي الدراسة التي اتهم مؤلف في الشعر الجاهلي من جانب بعض نقاده بأنه لم يجاوز سرقتها.

دوبريل في سقراط الذي كان يعتبره دوبريل شخصية وهمية[22].

المهم الآن إن أسباب نحل الشعر لشعراء الجاهلية هي، في نظر الرجل، ما ذكرنا. وهي أسباب افتراضية لأنها، وإن كانت تزيد رأي معتمدها للعقل، لا تدعم سلامتها المبدئية إلاّ بعدد محدود من الشواهد الحسية. هذه الشواهد كان الأقدمون قد ذكروها ولم يترددوا في ابداء الشك الذي أوحت به اليهم، لكنهم أحجموا عن تعميم شكهم على جملة الشعر الجاهلي. ولا يفوت خصوم طه حسين تذكيره بأن هؤلاء الأقدمين ـ وكانوا مئات أو آلافاً من النحويين والمعجميين والنقّاد والمؤرخين، الخ . . . ـ لم تكن تعوزهم جميعاً الاستقامة الخلقية. وهم كانوا، على وجه الدقة، شديدو العناية بهذا «الإسناد» الذي تتوقف على سلامته متانة بنيان السنّة توقف صحة الشعر الجاهلي. وكانوا يتحلون، الى هذه اليقظة، بكفاءة ما عاد اثباتها محتاجاً الى مزيد من البراهين. ولنوضح ان الأمر يتخطى الثقة بأفراد الى ضرورة اعتبار جهد نقدي امتدّ عدة قرون وكانت اتجاهاته المتعارضة لا تأبى أن يصحح بعضها بعضاً. هذا الاحتجاج الذي نجده عند نقاد طه حسين المصريين ونجده أيضاً عند مؤرخ من طراز بلاشير[23]، لا يعدو، في صيغته هذه، أن يكون احتجاجاً بالسلطة. يبقى انه إذا جاز لطه حسين أن ينطلق، بلا عائق، في قراءة «عذراء» للشعر الجاهلي، فإنه كان عليه، قبل أن يحيل شكه الى يقين أو ما يشبه اليقين، تفسير هذه السذاجة الغريبة التي يفترض أن النقد القديم أظهرها في موضوع الشعر المذكور.

يسخر طه حسين من نزوع الناس، في كل مكان وزمان، الى ايثار ما هو قديم[24]. فيشير مثلاً الى زعم القرطبي، في تفسيره للقرآن، إن حبة الحنطة كان حجمها، في العصور الخوالي، يبلغ حجم كلية البقرة[25]. ثم إنه يؤكد حقه في النظر بعين الشك الى ما قبله معظم الأقدمين مؤكداً أن الأخذ برأي الأكثرية ليس أساساً صالحاً لبناء الحقيقة العلمية[26]. هذا التوجه قد لا يكون على مبدئه غبار. ولكن مباشرة الشعر الجاهلي، بعد الاستغناء عن رأي القدماء فيه بضربة قلم، لا تستقيم ما لم تضف الى الشك المبدئي الذي يقيمه طه حسين على برهانه اللغوي ـ ولنا اليه عودة ـ وعلى النقد التاريخي، براهين «داخلية» ـ ان جاز هذا الوصف ـ تثبت بدورها كون الشعر الجاهلي منحولاً.

يقر طه حسين، دون صعوبة، بضيق الحدود التي يدير ضمنها نقده الداخلي. فهو يفلح بلا صعوبة أيضاً في زعزعة اطمئناننا الى المعطيات المتصلة بسير بعض الشعراء، فنحن كنا نعلم من قبل أن بعض التقاليد أدخل امرأ القيس والمهلهل وسواهما في مغامرات مشوبة، الى هذا الحد أو ذاك بمسحة الخرافة. ولكن الهوة واسعة بين هذا العلم وبين إبطال صحة الاشعار المنسوبة اليهما ـ أو معظمها في الأقل ـ ثم مد هذا الموقف، ليطول الى نحو مائة شاعر آخر. فإن طه حسين يرفض الاقتصار على المعيارين اللذين اعتمدهما القدماء للحكم بصحة أي شعر جاهلي وهما غرابة اللفظ وبداوة المعنى[27]. وهو يذكر بأن من تحوم عليهم شبهة الوضع كثيراً ما كانوا متفقهين وملاحظين ممتازين بحيث فاقت معرفتهم باللغة القديمة وبالحياة البدوية معرفة الجاهليين والبدو أنفسهم بهما، لذا فإن الاستكثار من الغريب في قصيدة منسوبة الى الجاهليين يُمسي عند صاحبنا سبباً من أسباب الشك. والحق انه لا يتخلى تخلياً تاماً عن المقياسين الآنفي الذكر بل يدمجهما في ثالث يسميه مقياساً مركباً[28]. أما ما يضيفه اليهما فهو طبيعة الصورة الشعرية ودرجة الصنعة أو العفوية الملحوظة في شعر بعينه. وهو يدخل أيضاً

(22) م م، ص 87 - 88.

(23) BLACHÈRE, Regis: *Histoire de la Litterature arabe des origines à la fin du XVe siècle de J.C. TI, Maison Neuve*, Paris, PP.166 Sq

(24) حسين، طه: في الأدب الجاهلي، م م، ص 178.

(25) م م، ص م، هـ 1.

(26) م م، ص 196.

(27) م م، ص 258 - 264.

(28) م م، ص 265 - 268.

فكرة «المدرسة» إذ يبحث عما يبحث عنه من خصائص لا عند شاعر واحد بل عند خمسة من الشعراء المصريين أخذ بعضهم عن بعض. وما نقع عليه عنده، في النهاية، هو الدعوة الرتيبة الى ملاحظة الصفة المحسوسة أو المادية للصور، في الاشعار التي يذكر، ومتانة بناء الأبيات. وهو يعتبر منحولاً كل شعر مفتقر الى هاتين الصفتين. ولا يتمالك المرء نفسه وهو يقرأ هذا الكتاب الخامس والكتاب الذي سبقه من الشعور بتعويل المؤلف المفرط على أمانة الشاعر لأسلوب معين طوال قصيدة بعينها، بل أيضاً طوال عمر برمته. فالمقياس المركب الذي يعتمده طه حسين ينحو بخفة نحو التحول الى وثاق مشدود يجمّد الشاعر في نمط ضيق. ثم ان هذا النقد انطباعي وذاتي الى الحد الذي يدع القارىء، في كثير من الحالات، غير قادر على الانصياع لدعوة الناقد. ففي آخر كل من هذه الفقرات المكتوبة بصيغة النفي («ما هكذا كان يتحدث» فلان أو تتحدث القبيلة الفلانية في الوقت الفلاني. . .)، يدعونا الناقد دائماً الى ان نحكم بأنفسنا: «واقرأ هذه الأبيات وحدثني أتطمئن الى جاهليتها»[29]. أما القارىء فنراه يميل في كثير من الأحيان الى الإجابة بالايجاب.

هذه المآخذ وسواها يأخذها خصوم طه حسين عليه. فمحمد لطفي جمعة، مثلاً، يواجه الانطباعية بالانطباعية ويستشهد مقاطع من هذا الشعر الجاهلي (هي أحياناً تلك التي يستشهدها طه حسين بعينها، وبغيته أن يرد بها الى الشعر المذكور ما أنكره عليه هذا الأخير أي كونه مرآة أمينة لزمانه[30]. ويستثمر المحامي ثقافته الواسعة في تسخيف المقارنة التي أقامها طه حسين ما بين الجاهلية العربية والعصور اليونانية الرومانية القديمة. فهو يجدها مقارنة عجولة متهورة[31]. وليس لنا أن نجمل هنا الصفحات الطويلة التي يخصصها جمعة ليثبت بطلان ما ذكره طه حسين من أسباب تعلل في نظره نزوع المسلمين الى الصاق شعر وضعوه هم بأجدادهم من الجاهليين[32]. فنشير فقط إلى إفراط في الثقة بالنفس، تنطوي عليه هذه المرافعة. هذا بينما كانت مطالعة طه حسين تشكو من كثرة الشك والاحتمال والترجيح. فيبدو ان سعة العلم لا تنجي بالضرورة من تصلب الفكر.

فلننظر اذن في برهان طه حسين اللغوي. وهو يبدو للوهلة الأولى بسيطاً، وقاطعاً أيضاً. مشهور ان الحميرية، وهي آخر لغة قديمة للعرب الجنوبيين كانوا ينطقون بها قبل الاسلام، انما هي لغة مختلفة جداً - برغم انها ساميّة هي الأخرى - عن لغة عرب الشمال التي وصلتنا فيها جملة الشعر الجاهلي. وما يستوقف طه حسين هو ان التقليد ينسب جانباً من هذا الشعر الى شعراء قحطانيين، جنوبيي المنبت. تضاف الى هذه المفارقة واحدة أخرى، وهي ان لغة الشمال نفسها كانت تتفرع في لهجات عديدة تنطق بكل منها قبيلة من القبائل الكبرى. والحال ان ما بلغنا من الشعر الجاهلي وصل كله بلهجة قريش وهي لغة القرآن. من شأن هاتين الملاحظتين، في رأي طه حسين، أن تدمّرا أولاً تصديقنا بشعر اليمن كله، وهو الأقدم بحسب التقليد، أي بالشعر المنسوب الى شعراء ولدوا وعاشوا في جنوب الجزيرة. وهما أيضاً كافيتان لتبرير الشك في الشعر المنسوب الى فريق ثان من الشعراء (وفيه امرؤ القيس)، وهم شعراء قبائل يمانية حملتها الى الشمال هجرات قديمة[33]. فقد كان ينبغي أن يحمل شعرهم آثاراً - في الأقل - من لغتهم القديمة. والحال ان شيئاً من هذا لم يحصل. أخيراً يطعن تعدد اللهجات في صحة الشعر الشمالي أيضاً لأن قبائل الشمال فرعان كبيران: مُضَر وربيعة، ومضر نفسها فرعان أيضاً: قيس وتميم. هذه القبائل كانت منتشرة فوق أرض تعرف اتساعها الهائل، وهي كانت تضم الى الجزيرة نفسها الصحراء السورية الفلسطينية.

---

(29) م م، ص 222 مثلاً.

(30) جمعة، م. ل.، م م، ص 64 - 92.

(31) م م، ص 158 - 172.

(32) م م، ص 173 - 273.

(33) هذا البرهان، بمرحلتيه، معروض في: حسين، طه: في الأدب الجاهلي، م م، ص 80 - 111.

وكانت كل واحدة منها تنطق بلغة اعتنى القدماء أنفسهم بوصفها. هكذا تنبعث من الاعتبارات اللغوية شكوك تكاد تأتي على الشعر الجاهلي برمته، أي على أعمال نحو من مائة شاعر تجاوبت أصواتهم في أرض العرب مدة قرن ونصف قرن.

على ان برهان طه حسين هذا قد لا يكون من المتانة بالمكان الذي يدّعي. فالمؤلّف لا يقدم دليلاً على الاختلال بين الحميرية وعربية الشمال إلا نصوصاً ثلاثة صغيرة يأخذها من دروس معلمه القديم اغناتسيو غويدي[34]. فيسارع ناقده محمد أحمد الغمراوي الى التنبيه على اننا نجهل تواريخ هذه النقوش وان خمسة عشر قرناً الى عشرين قد تكون فاصلة بينها وبين الشعر المختلف فيه[35]، والحال اننا هنا أمام مسألة حرجة. والصفحات المضطربة التي يكرسها محمد لطفي جمعة لشعوب الجنوب القديمة ولغاتها، تشي، رغم اتكائها على منجزات قرن من الاستشراق، بالتشويش العميق الذي لا يزال طابعاً لهذه الفصول من تاريخ الجزيرة[36]. ومعلوم انه بعد المناظرة التي نتناولها هنا بأكثر من ربع قرن، رأت جاكلين بيرين ان في وسعها نسبة أقدم النقوش الجنوبية الى أهل القرن الخامس قبل الميلاد. وهو ما يضيق المسافة ما بين هذه النقوش والشعر الجاهلي عدة قرون. لكنها ـ أي المسافة ـ تبقى شاسعة[37].

ويشدد مكسيم رودنسون بدوره على اختلاف الآراء في أزمنة تلك النقوش وفي العلاقات ما بين الخطوط العربية المختلفة قبل الاسلام[38]. وهو يلاحظ اننا اذا استثنينا بعض النقوش النبطية، ومنها نقش الملك امرىء القيس وقد وجد قرب دمشق ويرقى الى سنة 328 للميلاد، فإننا لا نعود نقع على أثر لكتابة عربية في الشمال من مطلع القرن الرابع للميلاد الى نهاية السادس[39]. ويضيف رودنسون ان الكتابات الأثرية في الجنوب بقيت تصاغ، حتى الإسلام، باللغة الجنوبية القديمة. هذا بينما «كانت الزعامة قد انتقلت، خلال الجاهلية الأخيرة، الى الحميريين الذين يبدو (. . .) انهم نطقوا بلهجة لم تكن جنوبية، بل كانت إحدى لهجات الشمال»[40]. هكذا يرتد اختلاف اللغة بين الشمال والجنوب الى اختلاف في اللهجة أثناء العهد الذي نتناول هنا.

على أي حال، ليس لهذا الجدال في لغات الجنوب إلا أهمية محدودة لموضوعنا. فإن قائمة شعراء الجاهلية من الجديرين بهذه التسمية ليس فيها اسم أي يمني مولود في اليمن. بل يقتصر الأمر على مقطوعات قليلة منسوبة الى أشخاص شبه خرافيين من أمثال صهر اسماعيل بن ابراهيم أو حسان بن تبع وهو حلقة من حلقات سلسلة حميرية لا يعرف عنها الكثير. هذه الأشعار لا تبدو مختلفة من حيث أهليتها للنظر عن البيتين المنسوبين الى آدم، في رثاء هابيل، وفيهما ان جريمة قايين أودت بربع أهل الأرض دون زيادة ولا نقصان[41].

---

(34) م م، ص 85 - 88.

(35) الغمراوي، محمد أحمد: النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة 1929، ص 169 - 171.

(36) جمعة، م. ل.، م م، ص 112 - 140.

(37) PIRENNE, Jacqueline: *La Grèce et saba, Une nouvelle base pour la chronologie sud-arabe*, Paris 1955.

(38) RODINSON, M.: Les sémites et l'alphabet. Les écritures sud-arabiques et ethiopienne», in: *l'écriture et a psychologie des peuples*, Paris, 1963, PP. 131-146.

ويجد قارىء المقالة عرضاً مجملاً للآراء المختلفة في تواريخ النقوش الجنوبية، ص 141 - 142.

(39) رودنسون، م م، ص 139 - 140. وراجع في صدد نقش امرىء القيس (الذي لا يجمعه بشاعر المعلقة غير الاسم) وفي صدد نقش آخر سابق له وحملاته متأخرة عنه: بعلبكي، رمزي: الكتابة العربية والسامية، دار العلم للملايين، بيروت 1981، الفصل الخامس.

(40) رودنسون، م م، ص 142.

(41)

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
وأودى ربع أهلها فباتوا ... وغودر في الثرى الوجه المليح

وأما يمنيو الشمال، وأشهرهم النجدي امرؤ القيس، فهم قلائل أيضاً ولا تتماسك منهم جماعة على حدة، منفصلة عن جماعتي مضر وربيعة. فإن هجرتهم الى الشمال ضاربة في القدم الى حد يجيز الشك في حصولها أصلاً. وينبه محمد الخضر حسين على التناقض الذي يقع فيه طه حسين في تناوله شأن هؤلاء اليمنيين[42]. فهو، من جهة أولى، يريد امرأ القيس أن ينطق بلسان أجداده. لكنه، من جهة أخرى، حالما يصل الى يمني صدر الإسلام ومنهم حسان بن ثابت، شاعر الرسول الرسمي، ان صحت العبارة، يقترح معاملتهم على انهم مصريون لأنهم عاشوا أعمارهم بطولها في الشمال. أي ان مؤلف «في الشعر الجاهلي» ينكر على امرىء القيس الحق في أن يفيد من السبب التخفيفي الذي يقرّبه لشعراء يصعب كثيراً الشك في نسبة أشعارهم إليهم.

يبقى إذن مشكل تنوع اللهجات في الشمال. وما يراه محمد الخضري هو انه لما كانت الفوارق بين اللهجات فوارق صوتية أصلاً، فان ظهورها نادر في الكتابة[43]. وهذه هي الحال في القراءات القرآنية السبع أيضاً. وذلك ان الكتابة العربية تكاد تكون مقصورة على الصوامت وان هذه الصفة كانت، فوق ذلك، أظهر في الكتابة القديمة منها في المتأخرة، لأن الصوائت الطويلة نفسها كانت مستبعدة منها في كثير من الحالات. والإبدال الذي يقع على صامت فيوجب كتابته بحرف آخر ليس في نهاية الأمر إلا حالة من حالات الفوارق الصوتية لأن توحيد الصيغة المكتوبة، في عهد لاحق، لا يسيء عادة الى وزن الشعر. فطالما اقتصر الأمر على مخرجين مختلفين لمقطع لا تختلف كتابته أو على إبدال صوت بآخر إبدالاً مضطرداً، أو على لغتين (لفظاً أو كتابة) في كلمة واحدة، فان الفوارق بين اللهجات يسعها ألاّ تظهر في الشعر المكتوب. وعلى ان هذا لا يضطرد خلافاً لزعم الخضري. فانه يستوي مثلاً، في بيت من الشعر، ان تلفظ اللام مفخمة أو مرخّمة ولكن لا يستوي، في نظر العروض، أن يقصر المقطع وأن يمد. يخطر من ذلك ان اللفظ قد لا يوجد أصلاً في احدى اللهجات وهو موجود في أخرى. وهذه واقعة لا ينكرها معظم الردود على طه حسين وتثبتها المعاجم القديمة ولكن بحرص أقل من حرصها على اثبات «اللغتين» أو «اللغات» في المفردة الواحدة. هذه الواقعة يجد فيها البعض تفسيراً جزئياً لازدهار الترادف الهائل في المعجم العربي، وهو ازدهار يفسره آخرون بالقول ان المترادفات تؤدي المدلول الواحد من وجوه مختلفة. كيف نفسر اذن ما يبدو من اتساق في معجم الألفاظ الذي ينهل منه الجاهليون؟ يقدم الغمراوي اقتراحاً جديراً بالنظر مؤداه أن نعود الى البحث في علم العروض العربي لنرى ان كانت البحور الستة عشر التي استخرجت في القرن الثاني للهجرة لم يوضع بعضها في الأصل ليناسب لهجات قبلية بعينها[44]. ولكن الرد على مشكل اختلاف المفردات بين لهجة وأخرى يبحث عنه في موضع آخر. انه في اتساق معجم الشعر الإسلامي المعاصر للنبي. وهو اتساق لا يمكن تفسيره لا بمعجزة فورية حققها القرآن، وهو لا يزال ينزل، ولا باختفاء اللهجات التي بقيت قائمة مدة طويلة جداً بعد وفاة النبي[45].

فلا يبقى غير أن نفترض ان اعتماد لغة موحدة للثقافة انما هو واقعة سبقت الإسلام. هو اذن نتيجة وأداة، في آن واحد، لولادة وعي مشترك تكوّن شيئاً فشيئاً وجاء الإسلام نفسه اعلاناً لبلوغه طور النضج. هذه الولادة أسعفتها الصلات

وينقل البيتين أبو العلاء المعري في رسالة الغفران، تحقيق وشرح بنت الشاطىء، دار المعارف، القاهرة، ط 3 (1963)، ص 362، وتضبط المحققة «ربع» بفتح الراء، فيصير البيت أقل وضوحاً وأقل فكاهة!

(42) حسين التونسي، م. خ.: نقد كتاب الشعر الجاهلي، القاهرة 1929، ص 306، مذ. في الاستانبولي: م م، ص 75 - 76.

(43) الخضري، م: محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب الشعر الجاهلي، القاهرة 1927، ص 158، مذ. في الاستانبولي: م م، ص 85 - 86.

(44) الغراوي: م م، ص 196 - 197.

(45) يعترف طه حسين نفسه بهذا الاستمرار، وهو في أي حال أمر لا شك فيه وضرورة تاريخية. راجع في الأدب الجاهلي، م م، ص 103.

المختلفة الصور بين القبائل ووطدتها المواسم المعروفة أي الأسواق الأدبية والتجارية. ولم تكن المواسم إلا الجانب الظاهر من شبكة أفضى نموها الى تشكيل بعض من أشباه الدول في الشمال، أي من التعابير شبه المؤسسية عن السعي الى الوحدة. عليه لا تكون لغة قريش ـ وهي لغة القرآن واللغة التي يلازمها الشعر الجاهلي ـ لغة لقريش وحدها. وإنما قريش أشبه بـ «مجمع لغوي»، في ما يرى محمد لطفي جمعة، جمعت ما استحسنته من اللهجات المختلفة ووحدته[46]. هذا الجمع عرفنا مثيلاً له، في عهد لاحق، ـ وعلى نطاق أوسع بكثير ـ هو ما قام به المعجميون الأوائل حين عرضوا معظم اللهجات القبلية ونقحوها ولم يستثنوا منها إلا ما وجدوه مشوباً بالدخيل على نحو لا يمكن تسويغه، وذلك من فرط الاختلاط بالأمم الأجنبية[47]. وما دمنا لم نقع على نصوص مكتوبة يصبح الاعتداد بها من هذين القرنين اللذين سبقا الاسلام، فهل يجوز لنا أن نصف أي لفظ بأنه قرشي، لا لشيء إلاّ لأننا نقع عليه في القرآن أو في أحد المعاجم القديمة؟[48].

يبقى ان المقياس الذي نعرض عليه الشعر الجاهلي، مهما يكن مركباً، فهو لا يغني عن القول بوجود لغة أدبية مشتركة بين قبائل الجاهلية. وذلك ان صحة الشعر الجاهلي رهن، في الأساس، بصحة هذا الفرض. إذ كيف يمكن لهذا الشعر، وهو شعر مخاطبة أصلاً، أن يتبع كل شطر منه في أسر لهجة معزولة؟ وكيف تستقيم مع العزلة وظيفة الشاعر الجاهلي الأولى وهي وظيفة المحاماة عن القبيلة والرد على الخصم وافحامه؟ وكيف نفهم، خارج نطاق الوظيفة المذكورة، ما خبرناه بعد ذلك من عناية العرب المفرطة بالشعر واستمرارهم في احلاله المرتبة الأولى بين أنواع الكلام.

والحال ان طه حسين نفسه لا يمانع في الاعتراف بأسبقية اللغة المشتركة على ظهور الإسلام ـ لكنه يخمن انها لم تظهر إلا في وسط القرن السادس[49] الميلادي. فيفسح لخصومه في مجال المطالبة بسند لهذا التخمين ما دام يقدمه عارياً من أي سند.

ومهما يكن من شيء فإن نقاد طه حسين لا يفلحون في جعل شكه غير ذي موضوع. هم يهزونه بعنف شديد، إذا صح القول ان الشك يهتز. فإن الأستاذ قد تعجل الوصول الى الأقاصي. صحيح ان مؤرخي الأدب باتوا، منذ ظهور كتابه، أقرب الى التسليم بأن الشعر الجاهلي خضع للتنقيح وللزيادة. ولكنهم، على الجملة، لا يسلمون بأنه منحول من الأساس. فإن كتاباً من أفضل الكتب في اللهجات العربية القديمة، ظهر بعد نصف قرن من شجار العشرينات ـ وهو لابراهيم أنيس ـ

---

(46) جمعة: م م، ص 142 - 143.

(47) م م، ص 131 - 133.

(48) لا يقول علماء القرآن ان القرآن نزل بلغة قريش من غير تقييد. فجلال الدين السيوطي، مثلاً، في كتابه الجليل الاتقان في علوم القرآن، شركة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1979 (جزءان)، يؤثر القول انه نزل «بلغة الحجاز» ج 1، ص 175. وهو يورد حديثاً طويلاً جداً منسوباً الى عبد الله بن عباس (ج 1، ص 157 - 175) يفسر فيه جملة كبيرة من غريب القرآن بالشعر، مستشهداً على كل عبارة بيتاً أو بيتين. وقد يجوز للمرء أن يشك في نسبة هذا الحديث لأسباب عدة بينها طوله وكونه، برغم ذلك، حفظ كابراً عن كابر بعد جلسة واحدة ومن غير تدوين، على ما تشي به سلسلة اسناده الطويلة. ولكن هذا لا ينتقص شيئاً من دلالته. فصاحب الحديث يستشهد شعراء بعضهم من غير الحجازيين وفيهم يمنيون ويفسر «غرابة» بعض ألفاظ القرآن بنسبتها الى لغات غير لغة الحجاز. ثم يعقد السيوطي فصلاً خاصاً في ما وقع في القرآن «في غير لغة الحجاز»، فيورد فيه عشرات من الألفاظ بعضها يمني، ويذكر قول الواسطي: «في القرآن من اللغات خمسون لغة» ويعددها! (ج 1، ص 175 - 178). بعد ذلك، يعقد فصلاً آخر عما «وقع فيه بغير لغة العرب» (ج 1، ص 178 - 185) فإذا هو نحو من تسعين لفظاً. واذا كان لا بد من الاعتقاد، في نهاية المطاف ان معظم العربية ـ وهي لغة القرآن ـ مشترك بين «لغاتها» (أي لهجاتها المختلفة)، فإن القول بأن القرآن «انما أنزل بلغة قريش» تمسي صحته مقيدة غاية التقييد، والكلام يدور ها هنا، بطبيعة الحال، على المفردات وليس على التراكيب والتصاريف، فهذه مسألة أخرى.

(42) حسين، طه: في الأدب الجاهلي، م م، ص 105 و203.

لا يتردد في اختيار مراجعة من هـذا الشعر الجـاهلي نفسـه، وذلك دون أن ينكـر أهمية البحث في مـوضوع أصـالته[50]. وفي المدارس وفي الجامعات يذكر شك طه حسين للتاريخ ـ فلا يلحق من جرائه كبير أذى بصورة امرىء القيس أو بصـورة عمرو بن كلثوم، رغم ذلك وصل كتاب طه حسين الى طبعته الخامسة عشرة وقد يكون جاوزها ونحن نكتب. أما الردود عليه فلم يعد طبع أي منها باستثنـاء مقالات الـرافعي والمازني، ولكن السجـال الحالي يبعث هـواجس المشاجـرة الأولى ـ أو أهمها ـ من رقاده ويعود الى بعض مداراتها.

ما هي هذه الهواجس؟ السؤال الزامي لا يملك أي محلل يقف، على نحو ما، خارج المنـاظرة أن يـزوغ منه. ويصـوغه جاك بيرك في العبارات الآتية: «لماذا أحدث الـطعن في أصالـة إرث مكرس، هـو الشعر الجـاهلي، مثـل هذه الفضيحـة، في مجتمع متدين، ما دام ان المطعون في تراثهم وثنيون، بلا مراء، شدد النبي نفسه في التنديـد بهم؟»[51] أسلفنا ان الاعتبـارات العقيدية، بمفهومها الدقيق، والاعتبارات السياسية والمؤسسية ـ وهي كلها ذات أهمية ـ لا تستنفد محتوى الرد عـلى موقف طـه حسين. أما بيرك فيتحدث عن «احتجـاج للكل»[52] واجـه به مجتمـع ماضـوي هذا التعـرض للتراث الذي يحتـل فيه الشعـر الجاهلي، بالنسبة الى النص القرآني، موقعاً مقابلاً لموقع السنة. فالوحي الإلهي اعـلان توحيـد يحيط به من جهتيـه «حديقتـان للتنوع» متقابلتان[53]. فمن جهة نقع على هـذه الوجـوه الجاهليـة «التي تتصل فيهـا البطولـة الإنسانيـة ووجود الأشيـاء فتحل الإنسان في مجاله»[54] ومن الجهة الأخرى نقع عـلى النموذج الإسـلامي الذي طفق منـذ القرن الأول للهجـرة يجمع في نفسـه «هذه الكثرة من التصرفات والفروق ووجوه السـلوك، وكلها تعزف من الحديث»[55]. عليه فإن الطعن في ركن من هذا البناء المثلث الأركان كان ينذر بالانتشار شيئاً فشيئاً الى الركنين الآخرين.

لا نريد أن ننكر على هذا التفسير وجاهته، ولكنـه لا يصل الى كـمال إلا بالنـظر في اتجاه آخـر. وذاك هو الاتجـاه الذي يتناطح فيه معنى معين للتراث واختبار لغرب بعينه. ويدلنا مثل لطفي جمعة على ان الثقافة الغربيـة المتينة، اذا اقتصرت عـلى جمع الحصائل والنتائج، يسعها أن تتطوع، دون عناء، لخدمة أكثر السـلفيات تشنجاً. وأما حداثة طه حسين النقدية فهي أقدر بكثير على قض المضاجع. فالخيار المنهجي هنا يشع بحدة وجودية غير مـألوفـة. وديكارتيـة طه حسـين، ولو صحّ انها سريعة العطب من حيث وجوه التطبيق ومن حيث المنجزات الحسية، تنطوي على طاقة تدمير ضخمة كـامنة في خيـارها المبـدئي وفي روحها. ولا تجوز الغفلة عن كون طه حسين الذي يـطالعنا بخـطاب تربـوي طويـل في الشك الـديكارتي وفي تقلبـات النقد الفرنسي الذي عاصره، لا يستثمر إلا لماماً حصائل البحث الاستشراقي في الشعر الجاهـلي[56]. فهو يمضي في طـريقه وحيـداً،

(50) أنيس، ابراهيم: في اللهجات العربية، مطبعة الانجلو مصرية، القاهرة، ط 4 (1973)، ص 36 - 45.

(51) بيرك، ج: م م، ص 279.

(52) م م، ص 275.

(53) م م، ص 276.

(54) م م، ص 275.

(55) م م، ص 276.

(56) نوّه كثيرون منهم بلاشير وبدوي بين بعض المستشرقين من نولدكه الى كليمان هوار كانوا قد وضعوا صحة الشعر الجاهلي موضـع التساؤل. عـلى ان طه حسين لا يطلب معونة من هؤلاء ولا يكترث لنقل فحوى جدالهم في موضوع كتابه. أما نقاده فقد توقفوا مـراراً عند الفضـل الذي رأوا طه حسين مـديـنـاً به لمرغليوث الذي ظهرت مقالته في الموضـوع قبل كتاب طه حسين بنحو سنـة. وقد سبقت الإشـارة هنا الى أن صـاحب في الأدب الجاهلي أكد، في رسالة الى مفتاح طاهر، انه لم يقرأ هذه المقالة إلا بعد سنـة من ظهور كتـابه هـو. ويجد القـارىء عرضـاً لآراء نولـدكه وهوار ومرغليوث وآخرين في:

BLACHÈRE. Regis: Histoire..., op. cit., T.I, dernier chapitre.

متخففاً من معيار التراث الذي يرفضه ومن وجه بعينه لأوروبا أنفق آخرون قواهم وهم تائهون بين ملامحه. وذلك ان التراث معيار من حيث هو مادة متجمدة. فالغدو والرواح الكثير الذي أنتجه ـ وهو لا يحصى ـ قد دخل منذ زمن طويل سكون الأبدية. وصار خلواً من الفائدة ـ أو يكاد ـ كل تذكير بأن التراث نفسه أثمرته جهود نقدية متمادية. حتى أن شكوك القدماء نفسها باتت لقدمها تقيد وكأنها عقائد. وذلك انه لا يستقيم للمرء أن يعيش بحرية حياة الأجداد كائنة حريتهم ما كانت، بل على كل امرىء أن يحاول العيش بما كسبت يداه. ومعيار التقليد، بما هو بديل فعال من الدهر الذي يرد اليه المسلم أوقات يومه ـ على ما ينبع إليه لويس غارديه ـ إنما يوفر، فوق كل شيء، ايقاعاً مطمئناً للزمن[57]. فمن دونه يضطر كل انسان الى ابتداع المعنى لكل حدث ولكل شيء. والحال ان طه حسين لا يكتفي بالعزوف عن اختيار أدوات القياس التي يستعملها من ترسانة التراث، وإنما هو يخضع للنقد كتلة من هذا الأخير توصلاً الى وضع حقيقتها على المحك، وفي هذا قلب شامل للزمن يزيد في خطورته ان الماضي والمستقبل يتبادلان من جرائه حظيهما من الواقعية. فقد كان التراث قبل هذا كتلة مصمتة قابعة في أساس الزمن نفسه، فجاءها من يقذف بها في أفق المستقبل، معلقاً بعض حقيقتها على حكم من الناقد آخذ في التكون. فكان ان ابتلاها هذا التطويح بشيء من لا واقعية الأشياء الواقعة في حكم المنتظر لا في حكم المتحقق. أما الناقد نفسه فموجود حقاً وصدقاً، ووجوده يفوق، من حيث الحقيقة، وجود موضوعه. وذاك ان الأول قد بات، بعد الانقلاب المذكور، أساس الثاني. الخلاصة إذن أن القحة وصلت بطه حسين الى حد الزعم انه موجود أكثر من امرىء القيس.

وأوروبا؟ رغم رجوع صاحبنا المتكرر الى اجتماعانية دوركهايم والى النقد التاريخاني، تبقى أوروبا التي اختار قارة سلبية أساساً، هي قارة في قيد الصنع لا قارة معروضة للتفرج. هي قارة رفع الأنقاض الضخمة لا قارة المباني المنجزة. ولنقل مرة أخرى انها، برغم الظواهر، ليست قارة الركون الوضعي الى العلمي وانما هي قارة المسالك الجدلية. وما تقدمه أوروبا هذه للمصري طه حسين لا يعدو الدعوة الى أخذ حركة الزمن على عاتقه والتدبر في أمرها من غير ضمان سوى سلامة العقل والحرية. ذاك هو ما أقلق الى الحد الذي رأينا رهط الأصوليين بمن فيهم من اختاروا، شأن جمعة، صيغة أخرى لأوروبا. وهذا التفسير للمناظرة هو وحده ما يتيح لنا اليوم أن نفضي مرة أخرى الى المعنى الحي لعبارتي «أهل القديم» و«أهل الجديد» بعد أن ذهب بنضارتهما طول الاجترار.

اليوم يواصل طه حسين حياته الثانية. وهو، في الأول، قد كان واصل العراك بأساليب مختلفة بعد كتابه **«في الشعر الجاهلي»**. فحين وصل الى أدب السيرة لم يمل شطر تنقيته من العناصر الأسطورية التي أقحمها فيه الرواة. بل إنه مال بهذا الأدب كله شطر القصص فأخرجه أسطورة تامة السمات. وكان هذا الاختيار، بمعنى ما، أسوأ وقعاً على أهل التقليد من التصدي للنقد على نهج عقلي. ووصل الاستياء منه الى أصدقاء لطه حسين نصروه في محنته السابقة لعل أهمهم محمد حسين هيكل، وهو نفسه مؤلف سيرة بالغ في تحقيقها تحت عنوان **«حياة محمد»**. وحين أصدر طه حسين، بعد ذلك **«مستقبل الثقافة في مصر»**، كان يباشر مرحلة أقرب الى النضج في النضال الذي افتتحته الفصول الأولى من كتاب **«في الشعر الجاهلي»**، وهي تدور على روح الثقافة وعلى المؤسسات التربوية. هاتان المحاولتان جاءت أولاهما أقرب الى الحيطة من اعلان الشك المدوي وجاءت الثانية أقرب الى الهم العملي. فلم تثيرا من الغبار ما أثاره الاعلان المذكور. إلا إنهما أثارتا مقداراً صالحاً من الغبار برغم كل شيء.

---

(57) ويجد أيضاً معظم نصوص المستشرقين في الموضوع منقولة الى العربية مع مقدمة وترجمات لأصحابها في:
بدوي، عبد الرحمن (تر): **دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي**، دار العلم للملايين، بيروت 1979.
GARDET, Lenis,: *Les hommes de l'Islam*, Paris 1977, PP. 279-280.

ومنذ أن مات طه حسين، قبل نحو من ثلاث عشرة سنة ـ وحتى قبل ذلك بزمن ـ وهو يجد نفسه مضطراً الى المضي في حرب لم تعد حربه الا بمعنى تقريبي. وما يزال خصومه فيها لا يخلون من شبه بما كانوه في العشرينات، فهم قد عادوا، بعزيمة متجددة، عبر كثير من الاضطرابات وكثير من الاضطهادات. أما الحداثة ـ وفي تيارها، اليوم أكثر متناولي صاحبنا الذي كان قليل الناصر، قبل ستين سنة ـ فقد أتيح لها أكثر من ستين سنة، أو قل أكثر من قرن ونصف القرن، في حالة مصر، لتجرب حظها. وما أنجزه تيار التحديث لا يمكن انكاره، غير انه اليوم يبدو مبهور الأنفاس، فالحداثة من حيث هي معتقد قد فقدت سحر الأشياء الغريبة الذي كان لا يزال لها شيء منه بين الحربين. وهي اليوم مجسدة في مؤسسات أخذت تلوح عليها امارات الشيخوخة. لم يعد على الجامعة المصرية أن تبرر وجودها حيال الأزهر الذي جاوز الألف من سنيه. وهي قد أمست جامعات، ليس الأزهر نفسه، بعد أن وصل إليه التغيير، إلا واحدة منها. والجامعات نفسها حلقات في شبكة المؤسسات الحديثة التي خلفت الكتاتيب القديمة في طول مصر وعرضها. وقد خرج منها مثقفون، هم ثمرات هذا التطور وورثته، يحملون، اليوم، المباخر حول ضريح طه حسين. وبقي آخرون هم تركة ماض مستأنف الحيوية يتبعون الرجل بحقدهم الى القبر.

وذلك انه، في ما وراء، نظام التعليم، توجد الدولة الحديثة. وقد اضطر الاسلام، منذ محمد علي، الى التسليم بوجود هذه الدخيلة. لكنه بقي يعد لها ما استطاع من قوة ويرقب منها تراخياً ويدفع ثمن نفاد صبره، من وقت لآخر، نكسات فادحة. ونفاد الصبر هذا لا ينى يتعاظم منذ 1967. وهو قد ازداد خطورة بعد موت عبدالناصر، برغم ان خليفته سمى دولته دولة العلم والايمان. وانتهى زحف الأصولية العنيد الى جرف السادات. وذاك ان ما يحدوه ليس مجرد مناخ اشاعته الهزيمة وانما هو، في الأصل أزمة عميقة تعصف بعقيدة الحداثة وبمؤسساتها. . . . أزمة ليس التضخم الذريع ولا لوثة السكن ـ وهي قد صارت مدار السينما المصرية برمتها منذ خمسة عشر عاماً ـ الا مظهريها الفاقعين، وهي تناوش ركني السلطة أي البيرقراطية التي أفقدت نموذج الانماء الناصري بريقه وأفقدها الجمود الاداري وشلل الخدمات العامة هيبتها والجيش الذي فقد العذر الخارجي لهيمنته.

على ان الدولة الحديثة يبقى لها، في ما وراء قواعدها المؤسسية، تنوع الشعب المصري. ولا أشير الى جمهرة الأقباط الكبيرة وحدها، بل أشير أيضاً وبخاصة الى تلك الغابة من أساليب الحياة والتفكير ومن التصرفات والمهن وهي، في جانب منها، نبات مشروع التحديث، والمؤسسات والنظم ليست إلا عبارتها وضمانها. هذا التنوع يجابه أي احتكار ضيق للسلطة بمقاومة بعيدة الغور. وهو يجعل الكلفة المترتبة على كسر التسوية الاجتماعية الراهنة فادحة للغاية. ليس مستغرباً، والحالة هذه، ان المنابر التي يقف عليها المنافحون عن طه حسين تقدّم اليهم من جانب تلفزيون الدولة ومركز الأبحاث التابع لجريدة الأهرام والمؤسسة العامة للكتاب الخاضعة لاشراف الدولة، الخ. . . فإن صاحب الأيام محشور اليوم في صف الدولة الحديثة، ولو صعب عليه أن يتعرف، في صورتها القائمة، الى أحلام شبابه. وانما يلوح الأنصار بصورته المجيدة في وجه الأصولية الصاعدة. وهو يعلم، ان كان ما يزال يعلم شيئاً. ولكن أي بديل من الدولة الحديثة يسع المقترحين أن يقترحوه على الرجل الأعمى في قبره غير تفجير الشعب المصري؟